العدد (1736) السنة السابعة - الأثنين (1) آذار 2010 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

العلمانيـــة والإمـامـــة.. نصـــوص لاتُجـوِّز الدولـــة الدينيـة

رشيد الخيُّون

(٢-٣)

سيرد أصحاب الدولة الدينية، وحسب ما يودون تسميتها بالإسلامية، على النصوص، التي وردت في الحلقة الأولى كافة، على أنها منسوخة، وهذا شأن المؤرخين والمفسرين لا شأن الدين، فقد نسخ أهل علم (الناسخ والمنسوخ) ثمان وتسعين آية، ورد في إقرار السلم، والصفح والمسامحة، والملا إكراه، والاختيار، والحرية، والتعقل، والمودة على الوجه العام، نسخوها كافة بآية واحدة هي المعروفة بآية السَّيف: "فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ"(التوبة أو براءة، آية: ٥). وقيل الآيات التي أمرت بالقتل الأخر من سورة التوبة أيضاً. فإذا ردَّ هؤلاء واحتجوا بهذا النسخ، وقد نسخوا من القرآن كل توادد وتراحم ومحبة وتسامح، ورفعوا منه كل تلك النصوص، يصعب الاتفاق على تلك المجزرة للآيات المقدسات. وهذا اعتقادهم لا يلزمنا ولنا اعتقادنا، الذي يحتفظ بآيات تتواءم مع التقدم الإنساني والإخاء الاجتماعي. فمن المعلوم أن كل ما يتعلق بالإجبار والكراهة والقتل هو محدد الزمنية له أسباب نزوله، وكل ما يفيد المودة والسلم له صفة الإطلاق والأبدية.

قال هبة الله بن سَلامة البغدادي (ت ٤١٠ هـ) في نسخ آيات الصفح والتودد والـلاإكراه وعدم السيطرة والحفظ والوكالة، وما أشرنا إليه من مجزرة الآيات: إن (هذه الآية (التوبه: ٥) النَّاسخة، وذلك أنَّها نَسخت من القرآن مائة آية وأربعاً وعشرين آية). وفيه أتى البغدادي على تتبع السور وآياتها المنسوخات سورة سورة في كتابه (الناسخ والمنسوخ).

ويعطي تقي الدين أحمد بن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) سبب نسخ آيات الرحمة والتودد والسلم وغيرها بالقول: (وكـان رسـول الـله (ص) وأصحابه يَعفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله تعالى، ويصبرون على الأذى ... وكان رسول الله (ص) يتأوَّل في العفو ما أمره الله، حتى أذن الله عزَّ وجلَّ فيهم).

وكتب ابن تيمية أيضاً: (وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله تعالى: "وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ"(الأنعام: ١٠٦)، "لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ"(الغاشية، آيـة: ٢٢)، "فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ"(المائدة: ١٣). "وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا"(التغابن: ١٤)، (فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَـأْتِـيَ اللَّـهُ بِأَمْرِهِ"(البقرة: ١٠٩)، قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُـوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُـونَ أَيَّـامَ اللَّهِ"(الجاثية: ١٤)، ونَحو هذا في القرآن مما أمر الله بـه المؤمنين بالعفو والصفح عن المشركين فإنه نسخ ذلك كلَّه قوله تعالى: "فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ"(التوبة أو براءة، آية: ٥)، وقوله تعالى: "قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ"، إلى قوله: "هُمْ صَاغِرُونَ"(التوبة: ٢٩)، فنَسخ هذا عفوه عن المشركين).

ومن الواضح أن الفقهاء جعلوا ما له صفة الدوام، كالصفح والتودد والرحمة والمؤازرة والعفو، هو المؤقت والمحذوف من القرآن، فلا يعني النسخ غير الحذف، بينما جعلوا الطارئ، كالشدة والقتل والكراهية، هو الدائم والثابت في القرآن، ولم يعروا لأسباب النزول أدنى اهتمام في مثل هذه الأحوال، لذا جاءت سورة التوبة أو براءة حاذفة للعشرات من آيات التعايش الإنساني، حتى بعد زوال المشركين وانتهاء حربهم ضد الرسول وأصحابه، وبعد تثبيت الإسلام كديانة.

وما يجري مجرى ما فهمناه من تلك الآيات هو أقوال النَّبي، وهي ليست بالقليلة أيضاً، أشار فيها إلى أن القضية قضية دين وليست دولة، منها حينما عرضت قريش على النَّبي المال والسلطان والشرف أجابهم قائلاً: (ما بيَّ ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلبُ أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا المُلك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً نذيراً، فبلغتكم رسالات ربِّي ونصحتُ لكم، لئن تقبلوا منِّي ما جئتكم به فهو حظكم في الدُّنيا والآخرة، وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم).

ومنه أيضاً ما جاء في باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، وهو ما حدث به عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هَاشِمٍ عن عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَعْنِي ابْنَ مَهْدِيٍّ عن سُفْيَانَ عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ مَرْثَدٍ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ، قال النَّبي: (وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا)( ). إذَنْ أي بشر يمكنه أن يصيب حُكم الله! وإذا شك أحدهم بهذا الحديث أو فسره على هواه، من أجل تأييد دعوته إلى قيام دولة دينية، فما المانع بالشك بغيره من الأحاديث التي يرون فيها قيام تلك الدولة، وحكم الله واجب إلهي!

ومن صحيح مسلم نقتبس حديث تأبير النخل، وحرية النَّاس في أمور دنياهم، ويتبعون الرسول بأمر دينهم: (حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَعَمْرٌو النَّاقِدُ كِلَاهُمَا عَنْ الْأَسْوَدِ بْنِ عَامِرٍ قَالَ أَبُو بَكْرٍ حَدَّثَنَا أَسْوَدُ بْنُ عَامِرٍ حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ وَعَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ فَقَالَ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ قَالَ فَخَرَجَ شِيصًا فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ مَا لِنَخْلِكُمْ قَالُوا قُلْتَ كَذَا وَكَذَا قَالَ أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ) .

ويرويه ابن ماجة أيضاً: (حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى حَدَّثَنَا عَفَّانُ حَدَّثَنَا حَمَّادٌ حَدَّثَنَا ثَابِتٌ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ وَهِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ أَصْوَاتًا فَقَالَ مَا هَذَا الصَّوْتُ قَالُوا النَّخْلُ يُؤَبِّرُونَهَا فَقَالَ لَوْ لَمْ يَفْعَلُوا لَصَلَحَ فَلَمْ يُؤَبَّرُوا عَامَئِذٍ فَصَارَ شِيصًا فَذَكَرُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ إِنْ كَانَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ فَشَأْنَكُمْ بِهِ وَإِنْ كَانَ مِنْ أُمُورِ دِينِكُمْ فَإِلَيَّ).

كذلك أشَارت نصوص من عصور الخلافة الثلاثة: الراشدية، والأموية، والعباسية، بقوة إلى اعتبارها تكليفاً إلهياً. لكن الحقيقة لم تكن كذلك، وإنما كان شعاراً مرفوعاً تدين النَّاس بـه. ولعلَّ أحد الذين عبروا عن الاستقواء وبهذا الشعار هو الفضل بن العباس بن عُتبة بن أبي لَهب، عندما خاطب الخليفة عبد الملك بن مروان (ت ٨٦ هـ)، لما غاضه مدح الأول لأبي محمد عليَّ بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب(ت ١١٧ هـ)، قال:

فإن يغضبك قولي في عليٍّ
وتمنع ما لدَيك من النَّوالِ
فـإن محمـداً منَّـا وإنَّـا
ذوو المجد المُقدَّم والفعالِ
بنا دان العبادُ لكم فأمسوا
يسوسهم الركيـكَ مِنْ الرِّجـال

على اعتبار أن وجود الدولة الدينية ضمان للدين والدُّنيا، فحسب تشريع الفقهاء وتطبيق الرِّجال تراها أساءت للاثنين معاً، تطويع الدين لمصلحة السلطة وظلم الرعية باسم الدين، مع أن المدينة المنورة استمدت شكل إدارتها، أيام الخلافة الراشدة، من تراث قريش بمكة، ودار الندوة المشهورة. (فيها كانت قريش تقضي أمورها)( ). وهي بمثابة دار الحكم (ما تُنكح امرأة ولا رجل من قريش إلا في دار قصي بن كلاب، وما يتشاورون في أمر ينزل بهم إلا في الإدارة، ولا يعقدون لواءً لحرب قوم من غيرهم إلا في داره، يعقدها لهم بعض ولده). وأتت مفردة الندوة بمعنى المشاورة، وبها سميت (الدار التي بناها قصي، و سميت بذلك لاجتماعهم فيها للتشاور).

ثم تدريجياً تحول الأمر إلى مُلك، حتى قال إخوان الصفا: (النُبوة بمكة والملك بالمدينة)، وقالوا أيضاً: (إن الإمامة إنما هي الخلافة، والخلافة نوعان: خلافة النُبوة وخلافة المُلك). وحدد ابن الطقطقي طبيعة إدارة الخلفاء الراشدين قائلاً: (كانت أشبه بالرُتب الدينية من الرتب الدنيوية في جميع الأشياء... وهذه السير ليست من طراز ملوك الدُّنيا، وهي بالنُبوات والأمور الأخروية أشبه)( )، فالحياة كانت بسيطة ممتزجة بالبداوة والفطرة.

غير أن الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان(قتل ٣٥ هـ) تمسك بالخلافة كرداء إلهي. ارتداه بفضل من الله. قال لأهل الأمصار الذين طالبوه بعزل نفسه عن الخلافة، أو عزل الولاة من أقاربه: (لم أكن لأخلع سربالاً سَرْبلنيه الله). أو قال لما حوصر بداره: (ما كنت لأنزع قميصاً قمصنيه، أو قال سربلنيه الله). بل قالها مروان بن الحكم(ت ٦٥ هـ) أيضاً عند حصار عثمان لمحاصريه: (جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا... أرجعوا إلى منازلكم! فإنا والله ما نحن مغلوبين على ما في أيدينا).

وصدق ابن الحكم فقد أخذها، وظلت في بنيه إلى حين!

ثم جاء في الرواية عن ولده الخليفة: لما (أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان والمصحف في حجره يقرأ، فأطبقه، وقال: هذا آخر عهد بك). وهي إشارة واضحة أنه سيحكم النَّاس بأسس دنيوية، بحاجة إلى السياسة وفنونها. وينقل عن ثمامة بن عدي، أمير صنعاء في عهد عثمان بن عفان، لما بلغه قتل الخليفة، بعد الانحراف عن بساطة الحكم والمشورة: (طال بكاؤه، ثم قال: هذا حين انتزعت خلافة النُبوة، من أمة محمد (ص) وصارت مُلكاً وجبرية! مَن غلب على شيء أكله).

كذلك اعتبر أول خليفة أموي، معاوية بن أبي سفيان (ت٦٠هـ) السلطة هبة من الله عليه. فقد نُقل عنه أنه خاطب العراقيين، بعد تمكنه من الأمر، وبسط يده على الكوفة، بالقول: (يا أهل العراق أترونني قاتلتكم على الصيام والصلاة والزكاة، وأنا أعلم أنكم تقومون بها! وإنما قاتلتكم على أن أتأمر عليكم، وقد أمرَّني الله عليكم... إنما أنا خازن من خزان الله، أعطي من أعطاه الله، أمنع مَنْ منعه الله).

وقال مثل ذلك ثاني خليفة عباسي، وباني مُلك بني العباس، أبو جعفر المنصور (١٥٨هـ) مخاطباً المسلمين في موسم الحج: (أيها الناس، إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده، وتأييده وتبصيره، وخازنه على فيئه. أعمل فيه بمشيئته، وأقسمه بإرادته، وأعطيه بأذنه. قد جعلني عليه قفلاً، إذا شاء أن يفتحني لإعطائكم وقسم أرزاقكم فتحني، وإذا شاء أن يقفلني عليها أقفلني. فارغبوا إلى الله واسألوه في هذا اليوم الشريف، الذي وهب لكم فيه من فضله ما أعلمكم في كتابه. إذ يقول: اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً. إن وفقني للصواب والرشاد، ويلهمني الرأفة بكم والإحسان إليكم، ويفتحني لإعطائكم، وأقسم أرزاقكم بالعدل عليكم).

هـل مـازال الغـــرب يحمـــل مفاتيـح المسـتقبـــل العربـي؟

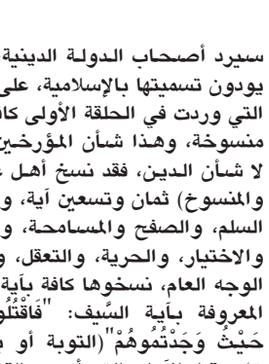

صحيح أن الاستعمار بدأ فعلياً التجزئة العربية بعد الحرب العالمية الأولى، من خلال اتفاقيتي سايكس- بيكو ١٩١٦ ، وسان ريمو ١٩٢٠ . فالأولى قسَّمت سوريا الطبيعية إلى فلسطين وشرق الأردن، والثانية قسَّمتها إلى سوريا ولبنان.
ولكن النُظم السياسية العربية التي سادت منذ ذلك الوقت وإلى الآن، كرَّست هذه التجزئة وهذه الفُرقة، وحالت في كثير من الأوقات دون قيام أي شكل من أشكال الوحدة العربية، أو حتى التكامل الاقتصادي، أو التعليمي، أو غير ذلك.
فهذه النُظم تتحمل مسؤولية استمرار وإعاقة التكامل الاقتصادي، والتوحيد السياسي.

شاكر النابلسي

فعلها الغرب.. ولكنّا زدنا الطين بلّة!

فلا شك أن الغرب كما تبين من استطلاع الرأي العام العربي حول مسألة الوحدة في العام ١٩٨٠، لعب دوراً في إعاقة قيام الوحدة العربية الجزئية، أو الشاملة. وقد تساءل بعضهم في هذه المرحلة عن أسباب هذه الإعاقة، فكان الجواب أن واحداً من الأسباب يعود إلى انخراط القوميين العرب أحزاباً وأنظمة قومية – والتي رفعت شعارات قومية في معارك الحرب الباردة – في استخدام مفردات وتحليلات سوفيتية في الرد على العدوانية الأمريكية، مما برر هذه العدوانية، ورفع وتيرتها، نتيجة لتأثير الخطاب العربي في العالم الثالث. فغدت أمريكا ترى في العرب خطراً على مصالحها، ليس في الوطن العربي فحسب، بل في العالم أجمع. وقد امتد أثر هذا التبنّي للقاموس السياسي السوفيتي من قبل القوميين العرب في مسألة الوحدة، وفي المسائل القومية الأخرى، إلى انقسام واضح داخل العالم العربي بين يمين ويسار.

فاليمين الغني يقف ضد مفردات هذا القاموس ودلالته. واليسار الفقير يتبنّى مفردات هذا القاموس ودلالته، ويهدد اليمين، ومصالحه ومستقبله بها.

موقف الغرب من الوحدة العربية

من ناحية أخرى، كان بعض الباحثين السياسيين العرب يعتقد في النصف الثاني من القرن العشرين – وربما ما زال هذا الاعتقاد وارداً حتى الآن – أن الغرب كله ضد الوحدة العربية، وأن لا أحد يريد للعالم العربي أن يتوحد.

والسؤال هنا:

– إذا كان هذا الافتراض موجوداً، فلماذا لا يريد أحد في الغرب أن نتوحد؟

هل لأن هذه الوحدة تضرُّ بمصالحه؟

إننا نتعامل الآن مع عالم غربي عقلاني، وليس مع عالم غربي عبارة عن قراصنة بحار، أو قُطاع طرق، أو قبائل غازية لطرق التجارة.

إننا نتعامل الآن مع عالم غربي مختلف عما كان عليه مطلع القرن العشرين.

عالم يحكمه رأي عام، وتحكمه صحافة حرة، ويحكمه حكام ديمقراطيون معرضون للنقد والملامة حين الخطأ. كما نتعامل مع مجتمع راقٍ، ومتعلم، ومتحضر.

أسباب معارضة الغرب للوحدة العربية

فتعالوا لنرَ ما هي الأسباب التي تجعل الغرب على وجه الخصوص، يقف ضد وحدتنا – فيما لو أردناها– علماً بأنه إذا قامت وحدة في العالم العربي – وهي تبدو الآن كأمل إبليس في الجنة، أو من المستحيلات السبعة – فيجب أن يكون قيامها ليس لمصلحة العالم العربي فقط، ولكن لمصلحة ومنفعة البشرية عموماً، ولمنفعة العالم الذي نشاركه الحياة والمصير على سطح هذه الكرة الأرضية.

لقد أشيع في الأدبيات السياسية العربية، خلال النصف الثاني من القرن العشرين – وهي مرحلة "الطوفان الوحدوي" الذي لم يأت بزرع أخضر، بقدر ما أثمر حنظلاً، وعلقماً، وخلافات سياسية، وحروب أهلية، ونزاعات حدودية – من أن الغرب ضد الوحدة العربية للأسباب التالية:

١– أن السياسة الدولية بوجه عام وعلى مر العصور كانت تكره قيام الكيانات الضخمة الكبيرة، فما قام منها إنما قام إما بحد السيف، وإما لتوافر ظروف مساعدة.

وجوابنا أن هذا حق في واقع الأمر، ولكن ذلك كان فيما مضى. والآن أصبح العصر عصر الكيانات الكبيرة. ولأنه غدا عصر منطق الكيانات الكبيرة، فلذا، نسمع في كل يوم أنباء شركات عالمية في شتى المجالات المالية والصناعية والمواصلات والاتصالات والخدمات، من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق، تندمج مع بعضها لتكوين كيانات كبيرة. والعالم كله يرحب بهذا. لقد أصبحت الكيانات الكبيرة هي لغة العصر التجارية والاقتصادية، وامتد ذلك إلى اليابان أيضاً كبلد متقدم. وفي زعمي، أن قيام التكتلات السياسية والاقتصادية الكبيرة في القرن الثامن عشر (الولايات المتحدة الأمريكية) وفي القرن العشرين (الاتحاد السوفيتي والوحدة الأوروبية) إضافة إلى التكتلات البنكية والصناعية والخدماتية، ومنها التكتل الهائل الذي تمَّ في مجال الاتصالات في نهاية العام ١٩٩٩ حيث قام أكبر تكتل ودمج بين الشركات في مجال الاتصالات الدولية بين الشركتين الأمريكيتين العملاقتين Sprint : و MCI وبين الشركة الثالثة البريطانية العملاقة World Com. ، وبرأسمال يزيد على ١٢٥ مليار دولار. وهذا التكتل وغيره يعتبر أكثر أهمية وخطورة من التكتلات السياسية. وقد غيّر هذا التكتل وغيره من التكتلات والاندماجات الاقتصادية الأخرى منطق العصر، شرط أن لا تكون في هذه التكتلات مضرة بالآخرين.

٢– نحن نعلم، من أن خوف الغرب الأول والأخير من قيام الوحدة العربية هو تحكّم العرب في بترولهم، واستعماله بين حين وآخر – كما في ١٩٧٣– كسلاح استراتيجي ضدهم لو قامت هناك تكتلات سياسية عربية بحيث يؤدي هذا التحكم إلى الإضرار بمصالح الغرب الصناعية التي هي بالتالي مصالح العرب الصناعية.

وردنا على ذلك، أن المصنع الغربي غير موجه في إنتاجه للسوق الغربي فقط ولكن للسوق العربي أيضاً. وأن المستهلك العربي يتضرر من أية أزمة بترولية، نتيجة ارتفاع أسعار السلع التي يستورد منها المستهلك العربي من الغرب أكثر من ٩٠٪ من احتياجاته، كما يتضرر منها المستهلك الغربي أيضاً، في ظل وحدة السوق العالمية وسلعها، وانفتاح هذه الأسواق على بعضها.

ولكن لنطمَئن وليطمَئن معنا الغرب ذلك، ففي زعمنا – ونأمل أن نكون مخطئين – أن البترول العربي سوف ينفذ، قبل تحقيق أية وحدة عربية، ولن يكون للغرب عندها أية حُجة، لمقاومة الوحدة العربية في هذا الشأن، أو مخاوف سياسية لقيامها.

٣– تشيع بعض الأدبيات السياسية العربية، من أن خوف الغرب من الوحدة العربية، مُتأت من خوف الغرب من الإسلام.

فبماذا يخيف الإسلام الغرب، وهل حقاً أن الغرب يخشى الإسلام؟

لقد قيل أن الغرب وقف ضد الإمبراطورية العثمانية بقوة، لأنها كانت تُجسِّد المدَّ الإسلامي.

فهل كانت الإمبراطورية العثمانية حقاً دولة إسلامية، بحيث أن الغرب كان يخشى من إسلامها؟

وفي زعمنا، إن الغرب كان يسعى لهدم الإمبراطورية العثمانية، لأن هذه الإمبراطورية أصبحت خطراً سياسياً يهدد الغرب بعد فتح القسطنطينية في العام ١٤٥٣ في عهد محمد الفاتح، والاستيلاء على بلغراد في ١٥٢١، وبعد الوصول إلى أبـواب فيينا في العام ١٥٣٢ في عهد سليمان القانوني، ثم في العام ١٦٨٣ في عهد محمد الرابع. وهذه الفتوحات لم تكن لنشر الدين الإسلامي، ولم تكن بدافع ديني إسلامي وإن كانت باسمه وربما تحت رايته، ولكنها كانت بفعل العصبية العثمانية، وبجنود من الانكشارية جيء بهم من البلقان المسيحية، كما قلنا في كتابنا (عصر التكايا والرعايا: وصف المشهد الثقافي في بلاد الشام، ١٥١٦–١٩١٨).

ولو كانت الدولة العثمانية دولة مسيحية، أو دولة يهودية، وكان لها الأطماع السياسية نفسها، لوقف الغرب منها هذا الموقف نفسه أيضاً!

الإسلام لا يخيف الغرب

فالإسلام لا يخيف الغرب. وإنما يستعمل بعض نصوص الإسلام بعض رجال الدين الأصوليين المتشددين، لإخافة الغرب من الشرق بسيف الإسلام، حيث لا سلاح يواجه به الشرق الغرب غير سلاح الإسلام، ونشر بعض نصوصه المقدسة ضد آخرين، كانوا قبل ١٥ قرناً ضد الإسلام والمسلمين.

فالإسلام لا يخيف الغرب بذاته، بل هو مُطمْئِنٌ للغرب أكثر مما هو مُرعب له، كدين سماوي متسامح، ينادي بالتعايش السلمي بين الشعوب "وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا " (الحجرات:١٣) .

ما يخيف الغرب الإرهاب لا الإسلام

والإسلام لا يخيف الغرب بقدر ما يخيفه الإرهاب المتستر بستار الإسلام. كما يخيف الغرب تهديد بعض "الدول الإسلامية" لمصالحه. ويخيفه أيضاً تهديد أي دولة أخرى لمصالحه بغض النظر عن أيديولوجيتها. فهو قد حارب الإمبراطورية العثمانية الإسلامية ولم يحارب الإسلام كدين، كما سبق وحارب من بعد الإمبراطورية الشيوعية، لا الماركسية كمذهب سياسي واقتصادي واجتماعي. ذلك أن هاتين الإمبراطوريتين (العثمانية والسوفيتية) كانتا تشكلان تهديداً لأمنه السياسي والاقتصادي.

فالإسلام كدين وكأيديولوجيا لا عداء سافراً له للغرب، كما يتصوَّر المسلمون المتشددون في الشرق. فالدين الإسلامي يُدرَّسُ في الجامعات الغربية، وله معاهد علمية أكبر، وأكثر تنظيماً، وأغزر علماً، وأوفر مالاً، من معاهده في الشرق كله. ويُنفق على هذه المعاهد أضعاف ما يُنفق على المعاهد الإسلامية في العالم الإسلامي مجتمعاً.

كذلك، فإن الماركسية كمذهب سياسي واقتصادي، ما زالت تُدرَّسُ في جامعات الغرب جنباً إلى جنب مع الرأسمالية كفكر اقتصادي وكفلسفة، ويدينُ بها فلاسفة وأكاديميون واقتصاديون غربيون، ويناقشونها بكل حرية. والأحزاب الشيوعية في الغرب (وخاصة في فرنسا) تعمل بحرية أكبر من الحرية التي كانت تعمل بها في الإمبراطورية السوفيتية المنهارة.

والغـرب يُصدر سنوياً مئات الكتب عن الإسلام والماركسية، تتمتع بحرية أكثر بكثير من الحرية التي كانت متاحة في الاتحاد السوفيتي السابق أو في العالم العربي، الذي يمنع ويحجُر على كثير من الكتب الإسلامية الصادرة في الغرب، أو الشرق.

وهذا كله لا يعني بأنه لا توجد هناك فئات غربية استشراقية تكيد للإسلام، وهي فئات فكرية وأيديولوجية متعصبة .

٤–كان يقال لنا، في أدبياتنا السياسية العربية، قبل عام ١٩٩٠ وسقوط الاتحاد السوفيتي، أن في العالم قوتين عظميين هما: أمريكا والاتحاد السوفيتي، وهما لا ترضيان بأن تقوم إلى جانبهما دولة عظمى ثالثة!

والسؤال هنا هو:

من قال لنا بأن الوحدة العربية ستُنتج دولة عظمى، وعلى أية القواعد سوف تُبنَى هذه العظمة، سيما وأن عظمة العصر الحديث تُقاس بعظمة العلم والتقدم التكنولوجي والصناعي، لا بكثرة عدد السكان واتساع الأرض؟

فأين نحن الآن، وفي الغد القريب والبعيد، من هذه الدولة العظمى، ونحن ما زلنا في هذا المستوى من التخلف العلمي والتقني الذي نحن فيه؟

فأرقـام القرن الماضي، وأرقـام بداية القرن الحـادي والعشرين، التي نُشرت عن نشاط العالم العربي العلمي والتكنولوجي، تجعل رؤوس الأمة العربية بأجمعها، منكسةً خجلاً وكسوفاً من هذه الأرقام، التي تقول إحداها أن العالم العربي لا يصرف على النشاط العلمي أكثر (٠,٢٪) فقط من مجمل الإنتاج القومي العربي. وأن نصيب الأمة العربية من الإنتاج العلمي أقل من واحد بالمائة. وأن نسبة الأميّة في العالم العربي مع مطلع الألفية الثالثة لا تزال أكثر من ٥٠٪. وأن نسبة الذين يقرأون الصحف كل يوم ما زالت مخزية.

والسؤال الآن:

هل ما زال الغرب يحمل أختام الوحدة العربية المرتجاة، إذا كانت هناك نية لتحقيقها الآن؟

وهل ما زلنا نرى في الغرب ذلك العدو الشرس المتربص بنا وبآمالنا وأحلامنا؟

وهل الغرب ما زال حتى الآن يريد تقسيمنا إلى دويلات وأقاليم، أكثر مما فعل بنا في بداية القرن العشرين، وبعد الحرب العالمية الأولى، دون أدنى مراعاة أو حساب للمتغيرات الهائلة المستجدة في السياسة، والاقتصاد، والاجتماع، والثقافة التي حدثت في العالم خلال قرن مضى؟

وأخيراً:

هل ما زالت عقليات سايكس– بيكو وسان ريمو (نسبة إلى مدينة ايطالية عقد فيها مؤتمر لندن ١٩٢٠) الاستعمارية والاستغلالية موجودة في الغرب حتى الآن؟

إنها أسئلة كبيرة وكثيرة، برسم أن تجيب عليها الأدبيات السياسية العربية الجديدة الآن!

آراء وأفكار
Opinions & Ideas

ترحب آراء وافكار بمقالات الكتاب وفق الضوابط الآتية:
١ .يذكر اسم الكاتب كاملا ورقم هاتفه وبلد الاقامة .
٢ .ترسل المقالات على البريد الالكتروني الخاص بالصفحة:
٣. لا تزيد المادة على ٧٠٠ كلمة.

ideas@almadapaper.net